صيّاد

بقلم: ربيحة الرّفاعي

أُحِبُّها، وأَعلَمُ أنَّها تُحِبُّني رُبَّما فَوْقَ ماحَلُمْتُ، تّنْتَظِرُ بِشَوقٍ إِطْلالَتي، هَمْسَتي، مُرورِيَ السَريعَ بِها بَينَ مَحطَّاتي الكَثيرَةِ وشُؤوني التي جَعلتُها –دائِما– آخِرَها؛ لِتِقَتي الأَكيدةِ منْ حُبِّها، ويَقيني أَنَّها ستَفرِض على نفسِها تَفهُّمَ الوَضْعِ، واستيعابَ الظَّرفِ كَأبْدَعِ ما تَكونُ الأُنْثى. ولم تُخَيِّب هِيَ ظَنّي، وَلكِنّي خَيَّبتُه، لَم أَستطِع يَوْماً خَلْعَ بزّةِ الصَّيادِ الّتي وُلِدْتُ أَلْبَسُها. فَأنا رَجُلٌ يَسْتَهويني الجَمالُ، وَتَرْتَمي رُوحِي راغِمَةً عَلى أعْتابِ النَّظَراتِ الفَاتِنَةِ، بَيْنَ سَيْفِ رِمْشٍ أّحدِّ مِن أَن يَتَجاهَلَهُ رَقِيقُ قَلْبٍ مِثْلي، وَشاطِئُ جَفْنٍ يُغرِي بِاقتِرابٍ، وَيُلْقِي في خِضَمِّ عُيُونٍ، هِيَ البَحْرُ أَيّاً كانَ لَونُها.!

أَهْرُبُ مِن بَيْنِ يَدَيْها بِأَلْفِ حُجَّةٍ وحُجَّةٍ، وتَخْتَبِئُ في ضَمِيرِي أُنْثَى تَقْبَعُ في زَاوِيَةٍ ما مِنْ كُلِّ حُجَّةٍ جَديدَةٍ، وأَتَصَوَّرني أَقنَعْتُها في كلِّ مرَّةٍ، فأَجِدُ مِنْها تَلْمِيحاً واهِياً تُوصِلُهُ مُتَرَدِّدَةً، رُبَّما بينَ خَوْفِها مِن انزِعَاجِي، وحِرْصِهاً عَلى لَفْت انتِبَاهِي، فَأَتَجاهَلُهُ وكَأَنّما أَمْحُوهُ بِتَجَاهُلِه، وقَدْ تَجاهَلَتْ وتَعامَيْتُ، وَ تَحَمَّلَتْ وَتَمادَيْتُ، وَلَمْ

أَلْحَظْ في ضَجِيجِ أَيّامي واهتِمَامَاتي أنَّ ذلِكَ البَرِيقَ في عَيْنيْها، حِينَ أُمْسِكُ بِوَجْنَتيْها بَيْن كَفَّيَّ، بَدأَ يَخْفُتُ يوماً عَن يَوم.

حينَ هَرَبْتُ مِنْها فِي لِقَائِنا الأَخِير، وَدَّعَتْنِي بِتَبَرُّمٍ لَمْ تُحاوِل إِخفَاءَهُ، وَقَرَّرتُ أنْ أَلْعَبَ دَوْرَ الغَاضِبِ المتَأذّي عِنْدَما أعُودُ، لكنَّها لم تَكُن حيْثُ انْتَظَرْتُ. نَادَيْتُها فَلَمْ تُجِبْ نِدائِي، وعَدَوْتُ مَذْعُوراً أَبْحَثُ عَنِّي، عَنْ صَدْرِهَا يَحْتَوِينِي وَحَنَانِها يَلُفُّني، قَلَبْتُ عَالَمِي رَأْساً عَلى عَقِبٍ، فَوَجَدْتُها في زَاوِيَةٍ أسْكَنْتُهَا فِيهَا ذَاتَ حُلُمٍ، وَحيدَةً تَجُوبُ بِعَيْنَيْهَا الفَضَاءَ بَحْثاً، ظَنَنْتُهُ عَنِّي، فَاقْتَرَبْتُ وَلَكِنَّها أَبْعَدَتْنِي...

اذْهَبْ أَرْجُوكَ ... فَأنَا ما زِلْتُ أَبْحَثُ عَن ثِقَةٍ بِكَ أحْتاجُها لِأَسْتَمِرَّ.